تضحية صحفية

للكاتب الأمريكي: أو. هنري O.Henry

يتمتع رئيس مجلة «هارتستون» بكثير من الذكاء ويتفرد بأسلوب ابتكره فيما يختص بجمع مادة المجلة ـ وهو لايضرب سياجاً من السرية ـ في حقيقة الأمر ـ حول أسلوبه هذا بل أنه يطلعك ـ بمحض إرادته ـ عليه ـ وهو متكئ على درج مكتبه المحفور من خشب «الماهوغاني» مبتسماً في شيء من الدعة الممزوجة بالطيبة... ناقراً ركبته ـ هوناً ـ بنظارته ذات الإطار المذهب.

ـ إن المجلة ـ سيقول ـ لاتوظف طاقماً من القراء، بل أننا نتحصل على استبيان لمادتها الخام مما يصلنا من أفكار مختلفة من القراء على تنوع ثقافاتهم ومشاربهم!

تلك هي فكرة رئيس التحرير وهو ما دأب على تطبيقه دوماً.

حالما ترد المواضيع إلى المجلة يحشو المدير بها كل جيب في بزته الأنيقة، ثم يطلب تعليقاً على ذلك من الناس. يقوم بتوزيعها على موظفي المكتب... الحارس والمستخدم وعامل المصعد والمراسلين وصبي القهوة وبائع الصحف الذي يشتري المسائية منه والبقال وقاطع التذاكر مختتماً ذلك بطباخه وخادمته. أولئك هم المحلفون... وهم من يدلون بالحكم النهائي على ما يصل إلى المجلة من مشاركات... أما إذا وصل إلى منزله وثمة أوراق في جيبه لما تزل فتكون من نصيب زوجته بعد أن يخلد إلى النوم صغيرهما.

بعد أيام عدة يجمع رئيس التحرير ما تفتقت أخيلة العامة عنه من حكم شامل، وقد حققت طريقته تلك نجاحاً لاحد له وسجل التوزيع أرقاماً قياسية، شملت كذلك ما تصدره المؤسسة من كتب، لإسهامات عامة الناس فيها قصب

السبق ـ وقد تتسرب بعض المواد من المجلة عمداً ـ طبقاً لما يتشدق به بعض ثرثاريها ـ فتنشرها مؤسسات أخرى لتلاقي بدورها نجاحاً منقطع النظير. هناك مثلاً تلك المقالة التي تحمل عنوان «ازدهار وانهيار سيلاس لاثام» والتي لم تلق إطراء من عامل المصعد وغيرها كثير! على أن المجلة كانت شديدة التمسك بسيادتها ونظرياتها المرتكزة على الآراء المستنبطة من كل عضو في هيئة التحرير، بما في ذلك موظفة الاختزال في مكتب رئيس التحرير وغيرها ممن وضعوا نصب أعينهم ذاك الأمل اليانع المتجدد المتمثل في الفوز برئاسة التحرير إما جاد الزمان يوماً وابتسمت الأقدار.

تلك السيادة العريقة للمجلة كانت مألوفة لدى الكاتب «آلن سلايتون» حينما ألف روايته القصيرة «المحبة هي كل شيء» إذ إنه طفق يدور بها على مؤسسات النشر ردحاً من الزمن أتاح له معرفة الكثير عن محرريها، ولم يقتصر إدراكه على الإلمام بسياسة رئيس تحرير مجلة «هارتستونز» فيما يختص باجتلاء آراء العامة حول ما يصله من مادة... بل تعداه إلى معرفة أن موظفة الاختزال الآنسة «بفكين» كانت صاحبة الشأن فيما يختص بقصص العاطفة.

وكان لرئيس التحرير عادة غريبة أخرى، تمثلت في حجب اسم الكاتب إبان توزيع المادة على القراء لاستطلاع آرائهم خشية أن تؤثر شهرة الاسم على حيادية ما يصل إليه من مقالات وتقارير تختص بذلك.

وكانت رواية «سلايتون» القصيرة «المحبة هي كل شيء» شغل المؤلف الشاغل، بذل فيها قصارى جهده وثمرة كدّه... ومنحها ستة أشهر من العمل الإبداعي المتواصل... كانت قصة هوى محضة مزجت بشذى العاطفة وحرقة الوجد، فجاءت شعراً منثوراً عزفته قيثارة القلب في ديوان الحب فسمت فوق الماديات إلى رحابة الروحانيات واستحقت جائزة الإبداع المتميزة ولا عجب، فقد كانت طموحات «سلايتون» الأدبية فوق حدود المحال مما حدا به إلى تكريس حياته

لذلك والتضحية بما عداه لأجله... بل أنه قد تجاوز ذلك إلى الحد الذي كان سيوافق معه على بتر يده أو الخضوع لمشرط الزائدة الدودية نظير نشر إحدى أعماله على صفحات «الهارتستونز»!.

أنهى «سلايتون» قصة «المحبة هي كل شيء» فأخذها إلى المجلة بنفسه وكانت تتوسط مبنى ضخماً يتولى أمره ـ باطنياً ـ فراش مفوّه، وما أن دفع «سلايتون»، الباب متوجهاً إلى المصعد حتى فوجئ بفرّامة بطاطس تطير تجاهه لترتطم بالباب فتحطم زجاجه، تبعها وبالسرعة ذاتها فرّاش المجلة وهو رجل قد اكتنز لحماً وطبق شحماً فيما بدت عليه جلافة وحدة طبع لاتخطئها العين... كان مذعوراً... تقطّع البدانة والخوف وسرعة الجري أنفاسه وتبعت تلك القذائف امرأة سمينة مقطبة الجبين مكشرة الأنياب وزلت قدم الفراش فسقط على الأرض دفعة واحدة مطلقاً أنيناً ينبض باليأس وخيبة الأمل... ولوعة الغارق في مهمه الظمأ يخال السراب ماء حتى إذا جاءه ما وجده شيئاً، وقفزت المرأة فوقه فجرّت شعره ثم توقفت بعد إذ وقع بصرها على الزائر الغريب فانسحبت عبر باب جانبي وبقية من خجل توجب هدنة طارئة وأما المغلوب على أمره ـ زوجها ـ فقد انتفض واقفاً يلملم أشلاء كبريائه الجريحة.

تلك الحياة الزوجية! قال لـ «سلايتون» في دعابة كليمة ـ وتلك هي المرأة التي لطالما سهرت الليالي أفكر فيها ـ يبدو أن الفرّامة قد أضرّت بقبعتك! شد ما أنا آسف... اسمع لاتدع أحداً يعلم بما حدث... فأنا لا أود أن أفقد وظيفتي.

واستقل «سلايتون» المصعد في نهاية الردهة متجهاً إلى مكاتب مجلة «الهارتستونز» حيث قدمها لرئيس تحريرها والذي وعده بدوره أن يطلعه على متاحية نشرها من عدمه في نهاية الأسبوع.

وفيما كان «سلايتون» يستقل المصعد خارجاً خطرت له فكرة رأى فيها مفتاح الفوز... وما تمالك نفسه إذ تبدّت ذاته له عبقرية السبك، خلاّقة بديعة في الاحتيال للأمور ووضعها في نصابها مبدعة في اقتناص الفرص والظفر بها... وفي الليلة ذاتها شرع في تنفيذ ما اختمر بباله مرتئياً في ذلك وسيلة مضمونة لنشر عمله الإبداعي في مجلته الأثيرة تلك.

كانت موظفة الاختزال الآنسة «بفكين» تقطن في المبنى ذاته وهي تميل إلى النحافة... والتقدم في العمر... واهنة متحفظة... عاطفية المشاعر وكان هو قد تعرف عليها في وقت سابق. فأما خطة الكاتب الجريئة بما فيها من تضحية فكانت كالتالي: كان على علم باعتماد رئيس التحرير عليها فيما يختص بانتقاء قصص العاطفة والرومانس، وكان ذوقها يمثل انعكاساً للمعدل العام لذائقة النساء آنذاك واللاتي كن يعشقن ذاك النوع من الروايات. أما الفكرة الرئيسة لرواية «المحبة هي كل شيء» فكانت تنبع من فرضية الحب العفيف الرامي إلى الزواج من أول نظرة وارتأى أن يجرب ذلك مع الآنسة «بفكين» ـ وذاك كان واقع الأمر محور فكرته الجريئة ـ أن ينقش في ذاتها نظريته تلك فترسخ في أعماقها... لتنبهر بدورها بقصته فتوصي رئيس التحرير بنشرها!

فكر «سلايتون» بذلك ووطد العزم على تنفيذه، وفي تلك الليلة دعاها لمشاهدة أحد العروض المسرحية على أنه لم يتوقف عند ذلك بل اتخذ إجراءً كان له بمثابة نقطة التحول في مسار حياته. أجل... أقدم ليلة الخميس على الزواج منها... وتلك كانت قمة الشجاعة والنبل فانضم بذلك إلى قائمة مشاهير الأدب ممن قدموا تضحيات سجلها التاريخ في سفر الخلود.... وفي سبيل الأدب يهون كل شيء ـ قال في نفسه ـ!

في صبيحة يوم الجمعة استأذنت السيدة «سلايتون» زوجها في الذهاب إلى المجلة لتسليم أوراق كان رئيس التحرير قد عهد إليها بقراءتها واستصدار حكم بنشرها من عدمه لتقدم استقالتها بعد ذلك:

ـ هناك...آ... أهناك قصة معينة بين ما تزمعين إعادته... شدت انتباهك... وحازت على إعجابك؟ سألها «سلايتون» ودقات قلبه كأكفٍّ مسعورة على دفوف الوجل.

ـ أجل ـ ردت ـ ثمة رواية قصيرة قرأتها فأمتعتني غاية ولا أحسب أن الزمن يجود بمثلها لاحقاً! كانت أقرب ما يكون إلى الواقع ـ في واقع الأمر.

ذلك المساء هرع «سلايتون» إلى مقر المجلة بعد إذ أحس بدنو الفرج وأن روايته قد باتت قاب قوسين إلى المجد أو أقرب، ولقي صبي المكتب خارجه فداعب فؤاده أمل في قرب المباهاة بنجاحه الأدبي وبزوغ فجر عبقريته الفكرية فهي على مرأى من الجميع، وسأل الصبي عن روايته فأحضر له مظروفاً كبيراً:

ـ لقد طلب مني رئيس التحرير أن أبلغك أسفه واعتذاره عن نشر روايتك. فهي ـ كما قال ـ ليست بحوزتنا!

ـ هل... هل باستطاعتك ـ تساءل «سلايتون» مصعوقاً ـ أن تخبرني ما إذا سلمت الآنسة بف... زو... أقصد الآنسة «بفكين» أتعلم ما إذا كانت قد سلّمت هذا الصباح رواية طلب رئيس التحرير منها أن تقرأها؟

ـ أجل... بالتأكيد ـ لقد سلمتها ـ قال الصبي مفتعلاً التعقل والحكمة ـ لقد سمعت رئيس التحرير يقول أنها كانت معجبة بها غاية ـ مرتئية أنها من الطراز الأول قيمة وجمالاً أما اسم الرواية فكان: «انتصار فتاة عاملة»!

هيه ـ استطرد الصبي ـ اسمك «سلايتون» أليس كذلك ـ المعذرة فقد حصل لبس ذلك اليوم لقد طلب رئيس التحرير مني توزيع بعض الأعمال الأدبية فوقعت في خطأ طفيف... أعطيت الفراش الأوراق التي كان من المفروض أن أدفع بها إلى الآنسة «بفكين» والعكس صحيح ـ لابأس بذلك... كما أظن... إنه ليس بالخطب الجلل.

عند ذلك أبصر «سلايتون» المظروف الذي يحمل اسم روايته «المحبة هي كل شيء» وقد خربش الفراش عليه بقطعة فحم عبارة «صدقت والله».